زيارة .. في الليل

قصة بقلم سليمان فياض

تفصدت حبات العرق ، وجذبت رائحة الجسد الملحية ، وضوء المصباح النفطي المعلق ، اعدادا من البعوض . وخزت احداها ثقبا رقيق الجلد تحت اذن « محمد بن مصطفى » . ضربها باطراف اصابعه على غفلة ، وهي مستغرقة في الارتواء من دمه ، فانسحقت . ونترها عن اصابعه بابهامه ، دون ان ينظر اليها . وظل مكان الوخزة دائرة مسممة، تنبض بالالم .

قال الحاج حمزة :

ــ شرفنا .

ــ عفوا ياحاج .

ــ فيك الخير مثل ابيك . الله يرحمه . كان يودنا دائما .

ــ الناس لبعضها ياحاج .

ــ يرحمك الله ويحسن اليك ياحاج مصطفى . كان زين الرجال . دائما كان مع الحق ، وما في قلبه على لسانه

قال محمد : ــ كان جيلكم جيل رجال .

ابتسم الحاج حمزة راضيا ، قال :

ــ هيه . كان زمنا . كنا شبابا جاهلا على اي حال . لكن ، لم يكن يعجبنا الحال المائل .

علق محمد :

ــ البلدة كلها تعرف ذلك . ما تزال تذكر ايام الانتخابات.

ضحك الحاج حمزة قائلا :

ــ ياه . فين ياعمر .. من عشرين سنة فاتت . كان عندي خمسون سنة . لكن ، كنت ما ازال عفيا . ياسلام . كانت اياما . ولم يعد سوى حسن الختام .

في ليلة ما ، جلس شباب العائلة حول الحاج مصطفى . كانت ايام انتخابات هي الاخرى . قال أبوه :

« خرجت من اللجنة . كنت قد وضعت صوتي ضد « الاتاربة » العمدة ورجاله ، كان معهم . والبلدة كلها كانت مع العمدة . العمدة اخذ خمسمائة أهيف . وكل واحد اخذ قطعة صغيرة بعشرة قروش . وانا خارج اللجنة ، قال لي الحاج حمزة : ما الذي على ظهرك يا مصطفى؟ كانت علامة بالطباشير على القطعة الكشمير الكحلية . ورجال الاتاربة كانوا قريبين . نظرت على ظهر الحاج حمزة . وجدته معلما غلى الدم في رأسي . ملت مع ستة على الجنينه . نتش كل واحد منا، في يده، فرع شجرة طيب . واقتلعت ، وانا اجري، شجرة جوافة . واستدرنا على رجال الاتاربة . وطحنا فيهم . جروا امامنا . هجموا علينا : الخفر، والعسكر . لكن . كنا قد نوينا : قاتلين ، أو مقتولين .وكانت حكاية ياأولاد . صلب قلب البلدة ، ووضعت صوتها ضد الاتاربة . وعندما ذهبنا الى النقطة . جاء العمدة بنفسه وصالحنا ، وفي قلبه ما فيه » .

العمدة كان يكره اباه . كان مستور الحال ، لكنه كان مسموع الكلمة . مجلسه كان دائما مجلسا عرفيا الناس ، وعلى عهده ، ظل « دوار » العمدة خاليا الا من اعوانه . لم تضع بندقية من بيت،او عرق خشب من حظيرة ، الا وجاء به من سارقه ، دون ان يعرف احد: من يكون السارق ؟ كان يعيش للناس ، وترك له ، بعد موته ، تركة ثقيلة ذكرى طيبة بين اهل البلدة .

قال الحاج حمزة :

ــ ذهب هذا الزمن ، وجاء زمن . كل انسان فيه يقول : نفسي . كثر الناس . وصارت الارض قطعا قطعا ، وكأنها غير موجودة . والعجيب، ان الكل « طالع في العالي » . ينظر الى اعلى ، أعلى. يريد ، ويريد يريد ان يعيش في العالي ، وعين ابن آدم لا يملاها سوى التراب

تذكر محمد ، ابن الليل « مدكور » . قال مستفسرا

ــ مدكور . شرفك ؟

انتفض الحاج حمزة ، وجم لحظة فاغر الفم ، وقال بفتور :

ــ فال الله ولا فالك .

ــ لانه لم يترك احدا ،لديه ملك ، الا وزاره ، واخذ المعلوم .

قالها محمد مبررا . ودخل « بدور افندي » . سلم على محمد. وجلس بجوار ابيه ، وضع ساقا على ساق ، تحت ثوبه الكشميري الرمادي . يضع على راسه عمامة ،لف شالها السكروته بعناية ، على العكس من عمامة ابيه الحاج حمزة . كان نظيفا ، مستدير الوجه، حاد الملامح ، تذوب حمرة دمائه الحاضرة في سمرة جلده . تفاحة آدم بارزة في عنقه الطويل ، تصعد وتنزل كلما تكلم .

قال محمد مؤكدا للحاج حمزة :

ــ على اي حال ياحاج ، لو ... لو حدث وجاء ، انا تحت أمرك.

قال بدور مستفسرا :

ــ من ؟

لم يجب محمد . وتنهد الحاج حمزة ثم قال :

ــ مدكور !

نهض بدور قائلا :

ــ لا اعتقد . لا بد ان يكون عنده نظر .

تساءل محمد في سره :

« نظر ؟ ... متى كان ابن الليل عنده نظر ؟ »

الحاج حمزة يملك عشرة افدنة . يستأجر من يزرعها له ، تحت اشرافه ، هو وبدور . لم ينجب احدا وعاش سوى بدور . لكن « بدور » انجب واحدا وعشرين ولدا وبنتا ، ومن امرأة واحدة . مات منهم ثلاثةفقط . الباقون احياء يأكلون طوب الارض ، والمرتب الذي يأخذه بدور افندي أول كل شهر من المدرسة .

قال الحاج حمزة قبل أن يبتعد ولده :

ــ جئت بالاحذية للعيال ؟

ضحك بدور بمرارة خفيفة ، وقال :

ــ جوال وحياتك ياأبي . من كل المقاسات . انتقيتها نصف عمر، من عربة في المركز . رميتها في الفسحة . هاأنت تسمع خناقهم.

قال الحاج حمزة :

ــ ابقاهم الله لك يابني . وتربوا في عزك . هيه. غدا يكبرون .

ابتسم بدور :

ــ يكبرون ؟ هه . لا احد ينفع احدا في هذا الزمن . هذا جيل لا يعلم به سوى الله .

ابنه الاكبر نال دبلوم الصنائع . توظف في مدينة بعيدة ، وتزوج منها ، رفض ان يمد يد المساعدة لاخوته .

ومن الخارج ، تدفق زياط الاولاد في فسحة البيت ، مع رطوبة الليل الخانقة .

قال الحاج حمزة لبدور الذي ينصرف :

الى أين ؟

- اجمع العيال ، واذاكر لهم قليلا. افوتكم بعافية .

خرج بدور مودعا بنظرة حب عطوفة من ابيه . على حصيرة ، في صالة البيت الكبير ، يفتح بدور فصلا لاولاده ، كل ليلة .

قال محمد :

- كان الله في عونه .

قال الحاج حمزة :

- الحمدلله . عوضني الله فيه خيرا .

صمت لحظة ، ثم قال فجأة :

مذكور لا بد ان يكون عنده نظر .

ساد الصمت بين الاثنين . محمد ينظر الى ثوبه النيلي السمني اللون . والحاج حمزة يحدق في الارائك البلدية ، المغطاة من كل ناحية بالوسائد ، وقماش الدمور .

جاء الشاي . حملته زوجة بدور اليهما . فتية كانت ، وفارعة، ومجهدة . تتدلى تحت عينيها جيوب سوداء . وضعت الشاي على منضدة بينهما . حيت الضيف بابتسامة عريضة ، وانصرفت على مهل . مشيتها ، ملامحها ، تشيان بجاذبية لم تذبل كثيرا ، وشخصية صبورة ومتجلدة .

اخذ الرجلان يرتشفان الشاي بصوت مسموع ، تعقب كل رشفة زفرة ساخنة مستريحة . يلتقي صوت رشفهما حينا ، ويفترق حينا اخر . فرغا من الشاي . ووضعا الكوبين على الصينية فوق المنضدة. اخرج الحاج حمزة علبة سجائره اللف ، ولف واحدة ،والصق ورقها بطرف لسانه ، وقدمها لمحمد . حرك محمد يده شاكرا واخذها. واخذ الحاج يلف لنفسه اخرى . نهض محمد ، ومد فمه بالسيجارة،على طرف زجاجة المصباح المعلق ، وجذب نفسا ، فاشتعلت اعواد التبغ الرفيعة الجافة ،بحرارة المصباح ، وناره المتصاعدة ، في لهب غير منظور . وعاد يجلس منشرحا في مكانه ، فرغ الحاج حمزة من لصق ورق سيجارته ، ودس العلبة في جيب عباءته ، وعادت يده بقطعة قماش ملفوفة . اخرج منها زناد القدح: زلطتين حادتي الطرف محروقتين. وفتيلة من القطن . وقدح الزناد بدربه ، فاشتعلت فتيلة القطن من شرارة نافرة . ثم اطفأ الفتيلة في نعل حذائه . وراح كل منهما ينظر الى الاخر .

كانت المحاصيل ما تزال تنضج في الحقول على اعوادها في نور الشمس ، وظلمة الليل ، على مهل . وكان وقت الانتظار ،على الجميع ،بطيئا ، وطويلا . في مثل هذه الايام لا ينقطع للناس حديث عن كلشيء في حياتهم ، كان ، ويكون ، وما سوف يكون . لكن « محمد » والحاج حمزة لم يكونا ثرثارين . كانا من طراز خاص بين رجال القرية طراز هادىء ، ورزين . يحدث نفسه كثيرا ، لكنه لا يتكلم الا بمقدار حين يسأل ، أو يجيب . يعرف مثل هذا الطراز الناس بتاريخهم. يعرف ما يمكن ان يقوله احدهم ان سأل ، وان اجاب . ولا شيء بعد يخفى في حياة اي احد ، حتى ما ياكله في بيته في العشاء .

تامل الحاج حمزة في غضون يده التي شاخت . ورنا لوجه محمد. محروق السمرة ، ضامر الوجه ، غائر الخدين والعينين الواسعتين السوداوين ، الفارقتين في ظل محجرين عميقين ، تحت جبهته العريضة البارزة . لكن انسجته ما تزال شابة لم تتهرأ بعد . خجل الحاج حمزة من نفسه ، حين وعى انه يحسد ابن الثلاثين على شبابه . قال لنفسه :

« تريد ان تاخذ زمانك وزمان غيرك » .

وقال لمحمد ، متهربا من مشاعره :

- النور جاء الى البلدة . وانابيب المياه مشت في شوارعها . لكن ، كم بيتا دخله النور او الماء ؟

- ليس مع الناس نقود للمعيشة . لو كانت هذه الحكاية ، فيما مضى ياحاج ، كانت قد حدثت . لكن الناس كثروا ، والارض هي هي. وقليل من يجد عملا في البندر . ثم .. من سيعلمه .

تفكر الحاج حمزة ، ثم احتج قائلا :

- لكن . كيف يجدون نقودا للقهوة والجوزة والبوظة ؟ .. على زماننا كانت الناس تجلس على المصاطب امام البيوت . وبالكثير... فنجال قهوة .

صمت محمد ، ولم يقل شيئا . فكر ان البلدة تتغير . وشعر ان قلبه مع ما يحدث . لكن ، بين ما يحدث اشياء كثيرة لا ترضيه: طلق عيسوي زوجته بعد شهرين ، واعلن انها لم تكن بكرا . لكنها لم تذبح ،ووجدت من يتزوجها . اكثر من لقيط وجدوه على باب المسجد، ولم يعد من السهل معرفة من تكون امه ، ومن يكون ابوه . كشفت البنات رؤوسهن وسوقهن ، ورحن يتبادلن الغزل خفية ، في الحقل وعبر النوافذ ، وفوق السطوح .

قال محمد مدافعا عن جيله والاجيال التي بعده :

- لكن ، ياحاج ، العمدة لم يعد يقدر كثيرا ، على ظلم احد، مثل زمان . الف شكوى وشكوى تقدم فيه كل سنة . البلدة امتلات بتلامذة المدارس. يشفون مثل عش النمل ، في الصباح ، وفي الظهيرة. ليست هناك عائلة الا ومنها عدة موظفين ، في بلدتنا ، وخارج بلدتنا.

بدت الجرعة ثقيلة العيار للحاج حمزة ، ولمحمد نفسه . لذلك عاد كلاهما الى صمته ، منصتا الى اصوات مختلطة : نعيق الضفادع وطنين البعوض ، واصوات المارة ، والاحفاد الذين يذاكرون ويتصايحون ويضحكون ويبكون . اخذ محمد يستجمع رغبته واعصابه تدريجيا لينهض . وبدأ يتململ في مكانه . وتثاءب الحاج حمزة . ولم ينهض محمد بعد . كانما يزال يدافع ثقل الفراغ ، والليل ، وهذه الارتخاءة المريحة فيضوء مصباح مشعل . وكان مزاجه معتدلا ، بعد كوب الشاي ، وانفاس السيجارة التي لا يذكر متى داسها بقدمه .

***

عاد الحاج حمزة يتثاءب . ولم يكن ذلك لطيفا ، الى حد ما، مع ضيفه . قال مبعدا الفتور والصمت :

- ماذا فعلت بالقط البري ؟

انتبه محمد من شروده . ابتسم بلا معنى . ثم ادرك السؤال، وتوهج نشاطا . قال : - آه . القط البري ؟ ساقتله غدا .

استجمع الحاج حمزة كل ما يعرفه عن القط البري . وقال بحماس لم تنطفىء جذوته بعد :

- في البداية . اقتل الذكر . وبعده الانثى . الذكر شرس. وسواء قتلت هذا أو ذاك ، فلا تترك الاخر حيا بعده . سيبحث عنك في اي مكان ، ويهاجمك .

- قالوا ذلك لي ، لكن،اطمئن ياحاج . البندقية ميزر ،وعياري لا يخيب .

- ولو خاب ، وهاجمك ؟

- لا اعتقد . لكن ، ساعتها ، ساخنقه .

واكد محمد ما يقوله بيديه ، كانه يخنقه فعلا .

قال الحاج حمزة :

- تخنقه ؟ لا يعطى هذه الفرصة لاحد . أتعرف كيف يهجم ؟ - لا تؤاخذني في الكلام - انه يبول على ذيله . ويمرغه في التراب، ثم يقفز على جانب الوجه ، ويضرب بذيله العينين ضربة شديدة، كلها تراب ، تعمي العينين . وبعد ذلك يهجم على « زمارة » العنق ويأكلها.

ارتاع محمد مما يسمع . بدا ذلك في وجهه . احس ان ذلك يحدث معه فعلا ، ووجد نفسه يلهث . وتعجب : هذا القط المتوحش يفعل كل ذلك !؟ لا بد اذن ان يقتله ، هو وانثاه وذريته . رآه مرة مع جيرانه في الحقل ، لكنه فر هاربا امامهم الى الغاب .

- فكرت أن احرق الغاب . لكنه سيأخذ عائلته ، ويذهب الى مكان اخر ، ثم يأتي مرة ثانية . ثم ان الغاب ، على شاطىء المصرف الكبير اخضر ، والنار لا تسير فيه بيسر .

- هذا صحيح يابني . لكن، لا بد ان تذهب وحدك . عندما يشم رائحتك الانسية ،وينظر ، ويجدك وحيدا ، سنيخرج اليك من الغاب، ويقفز حواليك .

ـ هل رأيتـه ياحاج ؟

ـ لا . ابدا . لكن من قبلنا قالـوا ذلـك .

عاد الاثنـان للصمت . قطع القط البري على محمـد الطريق الى ارضـه . لـم يعـد باستطاعته ان يذهب وحده ، فكـر انه لا يجـد الشجاعـة لمواجهته وحيـدا وقتله . ولو كـان ابوه حيـا لما تراجع. شيء مـا فـي داخله ، يعجزه عن المواجهة . الجبن ، ام التشبث بالحياة والخوف عليهـا من الموت ؟ لا تخيب لـه طلقة بندقيـة ، لكن : ماذا لو ارتعدت يده ؟ حركـة القط يقينا اسرع منه ، وحياته دائما في خطر لذلك ، لا يتراجع عـن مواجهـة فريسته . مسألة تحير حقا . لكـن لا بـد مما ليس منه بد . القط يقطع عليه الطريق الى ارضه ، ولن يجد جيرانه دائمـا معه . ويأتي وقت يبيت فيه مـع البهيمة التي تدير الساقيـة ، والارض التي تروى . اخوه ((محمود)) الصغير يذهب معه دائمـا ، بجسارة يحسده عليها . لا يخاف مثله من القط . لا يديـر وجهه مثله حيـن تذبح امهما دجاجـة ليلة الجمعة . يخاف على اخيه حيـن يذهب معه ، لصغره . لذلك يظل يقظـا دائمـا ، لا يغفـو، ساهرا عليه . فليترك هذه المسألـة للغـد . مع الصباح يفكر ، ويحزم امره. عاد يفكـر فـي ان ينهض . وسأل :

ـ كم الساعـة ياحاج ؟

اخرج الحاج ساعـته الفضية من جيبه . تثاءب ، وقربها من عينيه محدقـا . ومسح عـن بصره غشاوة دامعـة :

ـ الساعـة التاسعـة

ـ بس ..

ـ الليل طويل يابنى . والحر لا ينيم احدا . وهانحن نسهر معـا

***

كانا صامتين ما يزالان . يفكـر كل منهما في اموره . انقطع تيار الصمت المطن فـي ((المندره)) ، حيـن دخل عليهمـا من الباب علـى غفلة ، بشحمه ولحمه . وبدا حضوره غيـر قابل للتصديق . عبـر ساحة البيت الكبير ، ولم يطرق بابه ، ولم يناد احـدا ، ولم يطلب الستر لاهل البيت . تجمـد الحاج حمزة في مكانه ، وهب محمد واقفا :

ـ مـن ؟ .. انـت ؟

ضحك مدكـور قائـلا :

ـ سلام عليكم

اجاب الحاج حمزة ماخوذا دون ان ينهض :

ـ وعليكـم السـلام

واكتشف محمـد انه عاجز عن رد سلام مدكور . رفـع مدكور طرف ثوبه الوافي عـن ساقيه ، وهو يجلس . واسند بندقيته بين فخذيه. وجلس محمـد على طرف الاريكـة متحفزا ، ربمـا لمغادرة المكان لو طلب منه ذلـك . وراح يرقب . علـى رأسه لبدة بنيـة اللـون ، وحـول رقبته كوفيـة سميكة شتويـة ملفوفـة حول عنقه ، يتدلى طرفاها على ظهره وبطنه . ثوبه كشميري اسـود فاخـر . هكذا يواجه مدكور ، دائمـا ، من يزورهم ، لا يـراه احـد ابـدا فـي ثياب الليل . طويل، وعريض ، مكتنز الوجه ، مدملجه . لكن عينيه ناعستان ، فاترتان ، تريان كل شيء بنظرة جانبيـة ومواربة . ابن ليل حقا ، جاء من كفر ((ابـو حسين)) ، وعين نفسه حارسـا على اراضي القرية . فرض علـى كـل مالك مبلغـا يحدده هو ، في زيارة مثل هذه . وعلـى المالك ان يدفـع حتى العمدة نفسه يدفع. كلاهما يخشى الاخر ، ويتفادى الصدام بـه، ويستفيد مـن وجوده . الذين لا يملكون ، أو يملكـون شيئا لا يذكـر، قالوا : وماذا نملك حتـى يأخذه منا ؟ يكون قـد فعل بنا خيرا ، اذا اخذ بعض فقرنا . والذين يملكون ، طأطأوا رؤوسهم ، لديهم ما يجعلهم يحرصون علـى حياتهم : البيت المفتـوح ، والارض الطيبة ، والورثة من بعدهم . يحمل هـذه البندقيـة دائما . لم يـر ابدا بدونها ، يقيم في عش بين الغاب علـى حافـة ترعة ((البوهية)) . جاءت من النقطـة دوريـة بعـد دورية ، ليلة بعـد ليلة ، ونهارا بعـد نهار . حاصرت الغاب والاراضي . فتشت كل شبـر في النواحي ، ولم تعثر عليه ابدا، حتى شكت الشرطـة فـي وجوده . لكـن الناس دائمـا يرونه : العمدة، ومشايخ البلدة ، والخفر ، والنساء ، والاطفال ، يرونه مـع بندقيتـه، عندما يرغب هـو ان يروه . لـم يبحث عنه احـد ووجده . كـل عـام يشتري ارضا يكتبها لزوجته واولاده . هكذا يقولون . لـم يستطع احـد ان يتأكـد من شيء بشأنه . أنف ان يعرفه ، ويزرع الارض مـع اخيه. رفع البندقيـة ، وعاش بالخطر مستريحا . قال للعمـدة :

((الموت لا يأتي سوى مرة واحدة . اذن فمم اخاف .وهوآت آت))

لكـن احدا من اهل البلدة كلها ، لم يستطع ان يقول لنفسه ذلك، مثلـه . البهيمة تدور في الساقيـة مغمـاة العينين ، غافلة عن دورة المدار . لا تنظـر ابدا ابعـد من موطيء اقدامها ، حتـى لا تفكر فـي الشرود عـن المدار . لذلك تظل تدور وتدور . قـد يقدم لها الطعام، وقد يجـز رأسها بالسكين . ذلك شيء لا تفكر فيه البهيمة . مدكـور وحـده يفكـر فيـه .

طال الصمت والنظـر الى عيني مدكور المواربتين ، اللتين تقولان كل شيء ولا شيء. بلا كلمـات ، راح محمـد يحس ويفكر ، بهاتيـن العينين نامت جرائم القرية ، هجعت كلها في جريمته ، بالخوف منه وهو الحارس الذي لا يحرس شيئـا سوى نفسه ، ظلت عـروق الخشب بالحظائر في اماكنها . بقيت التروس فـي السواقـي سليمة لا تمس . نضج القطن وطاب ، ولم تقطف منه لوزة خلسـة . تركت الارض فـي ليالي الصيف دون ان تقلع منها شجرة . لكن الناس يعيشون في خوف جـارف ، دونه كل اشفاق علـى ما يملكـون . البندقيـة فـي يـده القاسيـة ، يصوبهـا قلبه الغليظ لا يعرف احد : متى يطلقها ؟ وعلى من؟ ولماذا ؟ .. ربمـا علـى اي احد ، ربمـا بلا سبب ، سوى تأكيـد انه موجود وقادر . مثله يملك الناس بنادق ، لكنهم لا يرغبون ان يطلقوها بلا سبب . هاهـو السبب لتنطلق ، لكنهم لا يفعلون ، ايضا ، لسبب. لا يريدون ان يواجهـوا الموت او يصنعوه . ألفـوا ان يخرجـوا الحياة من الرحم ، والحبوب من الارض ، يفرسون بنورهم فـي الاثنتين . ألفـوا ان يرقبـوا الظلم والظلمة في صمت ، وينشغلوا بالبحث عن قوتهم، وتقبيل ايديهم ظهـرا وبطنا ، رضـا بمـا يأتي ، وبما يبقى ، وفي القلب حسرة علـى ما لـم يأت ، وندم علـى ما ذهب . واذا وقع الظلـم على احدهم صرخ وحده ، ولـم يسمعه احـد .

قال الحاج حمزة ، قاطعـا الصمت الثقيل ، هاربا من النظـرة المواربـة :

ـ شاي ام قهـوة ؟

ـ الموجود ياحاج حمـزة .

واضاف مدكور مسندا ذقنه العريضـة الـى فوهـة بندقيته :

اذا كـان ضروريـا .

لفت الحاج حمزة راسه ، وصفق ، ثم انتظـر ، سمـع طرقـة تنبيـه علـى مصراع البـاب المفتـوح لداخل ، فقال :

ـ قهـوة للمعلم .

سمعت طرقـة الشبشب تبتعـد بسرعة . وعاد الصمت برهـة.

رفـع الحـاج حمزة رأسه قائـلا :

ـ خيـر انشاءاللـه .

ـ كله خير ياحاج حمزة . انني احرس ارضك

نظـر محمـد بسرعـة الى وجه الحاج حمزة ، لكنه لم يلحـظ الرعـدة الحبيسـة التي لمعت كالومضـة ، وانطفأت قبل ان ينظـر . تنحنح الحاج حمزة ، ونظـر اليه . هـو الاخر ينظر اليه بجسارة. الان رجـلان ينظر كلاهمـا فـي عيني الاخر تماما . قال الحاج حمزة :

ـ كـم ؟

قال مدكـور وهـو يبتسم :

ـ بسيطة . عشرة .

تداخل الحاج حمزة فـي بعضه ضعفـا وخوفـا . وتساءل محمد في ذات نفسه : ترى . هل ما تزال لديه الان بقيـة من القدرة علـى الرفض والتحدي ، كيوم الانتخابات البعيد ، الذي مات وشبع موتا ؟!

سمع محمد طرقتين على الباب الداخلي . نهض ، واخذ الصينية من زوجة الابن ، ونظر الى فنجال القهوة . سمعهمسها له:

ـ من ؟

ـ ضيف .

وانفتل هاربا بصينية القهوة ، وضعها امامه . ورفع الطبق بالفنجال ، وقدمه له : ـ تفضل .

وتمنى ان يضع فيه سما .

نظر مذكور الى عينيه ، ويده تمسك بالطبق منه ، فاضطرب محمد ، واستدار ، وجلس ، وكان مذكور يقول في الوقت نفسه:

ـ عز دائم ياحاج .

ـ من خيرك .

قالها الحاج حمزة بسرعة كمن يسب . وعاد الصمت . وراح مذكور يشرب ، راشفا قهوته بناقة ، بلا صوت . فكر محمد : يبدو كشبح من العالم الاخر . من يقدر ان يقتل شبحا . ورأى محمد الحاج حمزة يهم بان يتكلم ، ثم يصمت ، ويخرج مسبحته من جيبه، ويلوذ الى حباتها الكهرمائية . ليس من اللائق ان يتكلم الان ،حتى ينتهي مذكور من قهوته . فكر محمد أن يصادقه ، ثم يخونه ، ويسلمه للقتل ، او يقتله بنفسه . صديق ((الخط)) في الصعيد فعل به ذلك . وجد نفسه يأنف ان يكون خائنا او غادرا . كيف يكون ابن الحاج مصطفى خائنا او غادرا . لن ينسى احد في البلدة له ذلك . وسوف يعاملونه في حذر دائم .

وضع مذكور الفنجال بطبقه على الصينية ، ومسح فمه بكلوة يده .

ـ يجعله عامر ياحاج حمزة

صمت الحاج حمزة .انبثق الرد ، وانمحى في لحظة ، في رأسمحمد: ((وانت طيب يامعلم)) .

الان يجب ان تتكلم ياحاج حمزة ،قال الحاج حمزة :

ـ اسمع ، يامذكور ،يابنى .

وانتظر لحظة .

ـ انا حقيقة لدي ارض . وانت تقول انك تحرسها .

ـ البلدة كلها تعرف ذلك .

ـ ما علينا يابنى . لكن . انت تعرف . كم فما تطعمهم هذه الارض .

عبس مذكور عندئذ . بدا جافا وبشعا .

ـ اعرف . لكن . من ضمن مصاريف الارض . كل ارض تحتاج الى حراسة . ذمة الناس قد خربت .

صدم الحاج حمزة ، بلع ريقه ،وسكت واجما . وحدث محمدنفسه: ((من طلب منك ان تحرس . لكن . اسكت الان . في يده بندقيته))

نهض الحاج حمزة . ذهب يخب في بلغته وعباءته البيضاء . زاد تهدل وجهه المغضن . عبر الباب الداخلي ، وغاب . هل سيأتي بالنقود ام تراه سيعود حاملا بندقية ؟

رفع مذكور ذقنه عن فوهة البندقية ، وقال لمحمد متوددا:

ـ كان ابوك رجلا طيبا .

ابتسم محمد :

ـ عرفته ؟

ـ ياليت . قالوا لي عنه .

قالوا له ؟

ـ من قال لك ؟

ابتسم مذكور في غموض ، وصمت ، ثم تنهد قائلا :

ـ هيه . ليته كان حيا

حدث محمد نفسه

((كان سيقف في وجهك ، ويهرسك))

واضاف مذكور في سأم :

ـ الانسان لا يجد في البلدة رجلا .

ياللخيبة . ماذا أكون اذن . لكن : لماذا تريد أن يكون أبي لا ترى امامك يامذكور سوى عبيد . وشعر محمد انه هش كالقشة حيا ؟ .. ورنا الى وجهه . هذا الاحتقار والقرف . اينما ذهبت في داخل ثوبه . منخوب كالغابة في عرض طريق مترب .

طال الصمت ، وعلت نقات الضفادع ، وتضخمت في اذني محمد بدأ يحس بالمرض . سعل ، ومسح انفه في كمه . وود ان ينهض . هاتان العينان المواربتان تبقيانه في مكانه . لا ينبغي ان يذهب قبل ان يبتعد هو ، بزمن .هذا حكم اللحظة .

***

جاء الحاج حمزة مستندا الى يد ولده . يبدو منهارا ، لكنه يتماسك . يسير معه بدور ، بجانبه ، على قدر خطوه ، وعيناه على مذكور يجلسان . يرفع بدور رأسه قائلا بحسم :

ـ افهمني يا معلم مذكور .

ـ اعرف . عندك ثمانية عشر ولدا . واعرف ماذا تكلمتم فيه بالداخل .

يعني .

ـ عشرة ((أهيف)) .

ـ طيب .. بس ..

ـ النصف ، لا ، ولا قرش واحد . من أين تأكل البندقية ؟ وكيف تحرس ؟

اندفع بدور قائلا :

ـ عنها ما حرست

ومد يده الى جيبه بسرعة . في لمحة ، كانت البندقية في يد مذكور مصوبة الى صدره .

ـ اترك المسدس .

أخرج بدور يده من جيبه خالية . زفر مذكور ، ثم ضحك . وبدا محمد فاغر الفم . أخرج مذكور صوتا ساخرا من أنفه : هه أدار البندقية بين يديه . جعل فوهتها نحو صدره .

قال آمرا بدور :

ـ خذها .

يبدو بدور غير مصدق . ينظر الى وجه مذكور ، والى كعب البندقية .

ـ خذ . قلت لك : خذها .

قالها مذكور في صوت آمر ناهر .

يمد بدور يده ، ويأخذ البندقية . وتهبط يده قليلا بثقلها .

ـ اثبت . نعم . هكذا . ضع يدك على الزناد. الطلقة في الماسورة. انظر للدبانة جيدا .

يتحدث مذكور مرشدا ، كان البندقية غير مصوبة اليه هو . الحاج حمزة ينتفض اشفاقا على ولده . لديه فصل من العيال .

ـ اضرب .

يركز بدور عينيه بسرعة ، عبر خط الدبانة . يسمع محمد صوت زوجة الابن ، عبر ظلام الداخل :

ـ اضربه .

صوت صارخ متوسل . يثير الرعدة في جذور شعر الرأس . اصبع بدور يتراخى عن الزناد . يده ترتخي بالبندقية ،حتى تصل فوهتهاالى الارض ، كعريس فاشل ليلة عرسه ، امام عروسه . ابتسامة عريضة تتسع ببطء على وجه مذكور الذي يتفصد عرقا . الحاج حمزة ينتفض خجلا من ولده . ينظر اليه في خزي .

ـ حرام عليك . تريد أن اصير قاتلا .

وتسقط البندقية من يده على الارض . خيل لمحمد انه يسمع صوت بصقة في الظلام . يضحك مذكور في سعادة . يقول بقسوة ، دون حرج :

ـ البندقية تريد رجلا .

ينظر مذكور الى ساعة يده ، مبعدا كمه الواسع . يومض ذهبها في ضوء المصباح ، ويرى محمد الحاج حمزة ينظر اليه ، ثم الى البندقية ،

ليأخذها هو . يضبط مذكور النظرة العابرة ، فيعبس قائلا :

ــ افعلها أنت ياحاج حمزة . هذه ارضك، وهذه نقودك. انت رجل كبير في السن وينظر الى بدور معذبا ، في حقد خفي . ويضيف قائلا للحاج حمزة ، وعيناه على ولده ما تزالان :

ــ .. لن يفصلوك ، ولن يقطعوا مرتبك ، ولن يخاف منك عيال المدرسة . ورجلك صارت قريبة من القبر . أم تخاف ان ترتعش يدك ؟

ويمد الحاج حمزة يدا ترتعش ، الى جيب صديريته ، وينظر في عتاب لمحمد . وسمع محمد صوت نفسه :

« على أي حال يا حاج ، لو .. لو حدث وجاء ، أنا تحت أمرك » .

كان يريد ان يملأ فراغ أبيه . في خياله نهض ، وامسك بالبندقية الملقاة ، وصوبها الى رأس مذكور ، واطلق . خبطت زوجته « سنية » على صدرها وهتفت : ــ محمد . هيه . انت قتلت ؟.. ابتعد عني .

امسكت أم محمد ، أمه ، بذقنها ، وشهقت :

ــ هه . ابوك لم يفعلها . يدك ستعتاد على القتل يا بني .

عيون الكل تنظر اليه : قاتل . قاتل . عندما يعود للبلدة من النقطة، او من السجن ، سيلبسه دور القاتل : العينان المواربتان . اللبدة . الكوفية . الرقبة المعوجة على جانب البندقية .

ــ خــذ .

كان الحاج حمزة يمد يدا ترتعش لمذكور بالجنيهات العشرة .

ــ كان ابوك رجلا طيبا .

نظر محمد الى مذكور . انه يحدثه ، وينظر الى البندقية الملقاة واليه ، ثم يبتسم في وجهه متوددا ، وينهض . ويأخذ البندقية ، ثم النقود . يدسها في جيب صداره الحريري . حذاؤه شمواه . نعل الحذاء « كريب » . يعلق البندقية في كتفه . لا يبدو على وجهه حرج .

قال لبدور :

ــ لا تتعب نفسك في التفكير . لن تجد احدا تؤجره علي . الكل يعرف انني ناب ازرق . واذا وجدت سيكون الثمن غاليا .

واستدار مذكور قائلا : ــ سلام عليكم .

لكنه عند الباب ، التفت ، ونظر الى محمد قائلا :

ــ دعها مستورة معك يا محمد .

وانصرف . اي سلام ؟!. ران الصمت كحمل ثقيل . لا احد ينظر في وجه الآخر . الرؤوس مدلاة على الصدور . العيون تنظر الى موطىء القدمين . نعيق الضفادع يعلو ، ويتداخل ، ويتضخم ، كلحن جنائزي تعزفه اوتار نايات حزينة متنافرة ، كحلقة لطم وصراخ لنسوة القرية في مأتم قتيل .

***

كانت زوجة الابن واقفة على عتبة الباب الداخلي ، لا تتكلم . يبدو محمد اللحظة غير مرغوب في بقائه بعد . لكن لحظة انسحابه لم تحن . قال له مذكور ما معناه ان يبقى ، وان يبتعد عن طريقه . لذلك سيظل جالسا .

قال الحاج حمزة ، دون ان يرفع رأسه عن صدره :

ــ لو حدثت مشاحنة بسيطة على المياه ، في الحقل، بين الجيران، اهل البلدة الواحدة ، كانت قد ارتفعت « النبابيت » والفئوس ، وربما البنادق ، ويسيح الدم ، وربما مات احد . اولاد ابو عليوه من كذا يوم ، وقفوا ، اربعة اخوة ، صفا واحدا ، من أجل دورهم في المياه ، وساح فيها الدم . بيننا وبين بعضنا سباع ، ومع مذكور ..

تنهد الحاج حمزة ، وهز رأسه في أسى ، ثم صمت .

عاد محمد يفكر بحسه بلا كلمات . مع بعضنا نعم . مسالمون في لحظة غضب . كل يحارب من أجل مصلحته الخاصة . لكن مع مذكور ، يا حاج حمزة ، الامر يختلف . انك تواجه الموت بنية القتل . قاتلا يكون الانسان ، مثل مذكور ، او مقتولا . ثم ، لا تؤاخذني : ما مصلحتي انا مثلا في الا تدفع لمذكور ؟ لست انا الذي يدفع . آه . لكنني اشعر معك بالذل . حين احتاج سآتي اليك . وعندما اكون وحيدا سأسهر معك مثل الليلة . وحين أعبر ارضك ، لن اجد حرجا في اخذ خيارة اشتهتها نفسي . وود محمد ان يفصفص عن نفسه .

قال نافخا ، دون ان يرفع رأسه :

ــ الايام قادمة .

قال بدور مبررا ما في داخله ، كأنه لا يحدث احدا .

ــ غريبة !! كيف شلنا جميعا . كأنه قد سحرنا .

اصدرت زوجة الابن صوتا مسموعا ساخرا بشفتيها فقط . احس بدور ما يدور في رأسها ، نظر اليها ، لكنها قالت :

ــ فداك ، أنت والحاج ، يا بدور .

وابعدت عينيها عنه الى ظلمة الداخل . ولم تذهب . قال الحاج حمزة : ــ زمان ..

واخذ نفسا عميقا ، ورفع رأسه ، لكنه لم ينظر الى احد ، ثم قال :

ــ زمان .. نزل بلدتنا اربعون لصا ، على اربعين فرسا . لم يكن احدكم قد ولد . كانت البنادق في ايديهم . وظلوا يرمحون في شوارع البلدة بالخيل ، ويطخون أعيرة في الهواء . اغلقت البلدة على نفسها ابواب الغرف ، قبل ابواب البيوت . واخذوا كل مواشي البلدة . ساقوها امامهم . وكان كل خوفنا ، ان يطيش عيار من بندقية مائلة، ويصيب كومة من القش على سطح بيت ، وتشتعل البلدة ، ونحن محبوسون بداخلها . كنت صغيرا ايامها . انظر من خصائص النافذة.

وتنهد الحاج حمزة ، ثم قال بصوت من يرثى :

ــ وجاء جيل ، على جيلنا الذي يودع من سنين . كثر جيلكم يامحمد . وحمل راديوهات صغيرة . لكنه ينظر الى رجليه . ولقمة خبزه . ويا نفس . هيه . ومن يعرف : ما الذي سيحدث لاولادنا ؟

والتفت الحاج حمزة نحو محمد قائلا :

ــ ابوك كان رجلا . لو كان يزحف الى القبر ، لم يكن ليسكت مثلي .

احس محمد بذات الطعنة التي يوجهها الحاج حمزة الى نفسه . لم يقل شيئا . وسمع صوت مذكور يرن في اذنيه :

« ليته كان حيا . الانسان لا يجد في البلدة رجلا » .

وفكر محمد ، انه ، مع ذلك ، ابن هذا الرجل المستور الحال ، الذي عاش دائما مع الحق والمظلوم على الظالم . وسأل نفسه : كيف يستطيع ان يواجه الموت ، يواجه مذكور ، وهو بعد يدير وجهه ، حين تذبح أمه دجاجة . ولم يستطع ان يقتل القط البري الذي يقطع عليه الطريق الى ارضه ؟ كيف يستحق هذه الارض اذن ، ولقمة الخبز التي يضعها في فمه ؟

ونهض الحاج حمزة قائلا :

ــ قم . عد الى بيتك يا محمد . فقد أبتعد الآن .

ونهض محمد واقفا . وادار الرجل ظهره اليه ، دون ان يصافحه . ووقف بدور ليسند أباه الحاج ، لكنه سحب يده بعيداً عن ولده . ومدها نحو المرأة الواقفة ، قائلا لها : ــ خذي يدي يا ابنتي .

ولطم محمد وجهه ، وهو يحس بفجيعة تخنقه . وتخايل له القط البري يصرخ في وجهه . فصرخ مثله ، دون صوت ، مكشرا عن انيابه . واندفع خارجا ، في ظلام الليل .

القاهرة — سليمان فياض

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار